شفيق مقار

في جذور الشر

الذئب الآتي من الأله

د . ستيورات عن هرتسل

ـ ١ ـ

اشياء يجب ، منذ البداية ، ان تقال

التقيت بدزموند ستيوارت بالقاهرة مرتين ، في العام الماضي ،مرة بمكاتب وزارة الاعلام بماسبيرو ، ومرة اخرى ، بعدها بشهور ، في محل لاباس ، وكان ذاهبا ـ فيما اذكر ـ الى اليمن . وفي المرتين دار الحديث اساسا حول شيء واحد : كتاب كان آخذا في تأليفه ، عن تيودور هرتسل . وكل من خبر حرفة الكتابة يعرف ، ولا شك تلك الحالة التي كثيرا ما تجعل الكتاب اكثر خلق الله اثارة للملل، اذ لا يكفون ـ من فرط تسلط ما يكونون آخذين في الحمل به او اطرازه مدادا ، على اذهانهم ، وما يولده ذلك التسلط من أخيلة وأوهام ، ووساوس وشكوك ـ لا يكفون عن الثرثرة به ، متصورين ان السامع لا شاغل له في حياته الا ذلك الذي يصدعون به رأسه .لكن دزموند ستيوارت ، فيما بدا لي ،كان وهو يلف ويدور ويعود الى الحديث عن هرتسل ، نهب احساس اخر . واذكر أن الحديث جرنا، بطريقة ما ، الى غسان كنفاني ، وميتته الفظيعة في بيروت . وقدنظر الي ستيوارت لحظتها وقال انه لا يظن ان اليهود سوف يروقهم كثيرا ما يقوله هرتسل . ومن هناك تطرق بنا الحديث الى ترجمته لقصيدة من قصائد البياتي عن النكبة ، والى تفضيله الاقامة في قبرص على الاقامة في عاصمة عربية لانه لا يحب ان تعبث يد ببريده فتفتحه .

وقد عاودتني كلماته ، ونبرته المغمغمة اللاهية بعض الشيء التي يجيد بنو جلدته استخدامها عندما يوافقهم ان يجعلوا ما يتحدثون عنه يبدو بسيطا ، ومن امور كل يوم ، وانا افتح بفضول كتابه، وقد صدر اخيرا ، وتطالعني في مستهله هذه الكلمات :

« تملكني الطموح الى كتابة سيرة جديدة لتيودور هرتسل ،في عام ١٩٧٠ . وكنت وقتها قد انتهيت من تأليف كتابي « معبد جانوس » وهو تاريخ للشرق الاوسط من افتتاح قناة السويس ،حتى اليوم .ولقد بدا هرتسل ـ بين الشخصيات الرئيسية المؤثرة في القرن والافليم اللذين اختارت الكتابة عنهما ،من الخديوي اسماعيل ، والسلطان عبدالحميد ، الى كمال اتاتورك ، وجمال عبدالناصر ـ اكثر تلك الشخصيات غموضا واثارة للاهتمام . فالرجل الذي توصل الى الربط بين المفهوم الغربي للدولة واحلام اليهود المسيانية قد ظل مبهما كايقونة رسمت على زجاج ملون. وهذا الكتاب ـ لذلك ـ محاولة للاسهام في المناظرة الدائرة حول الحركة السياسية التي ارتبط اسمه بها ،بل لاكتشاف الكائن الانساني الذي عاش من سنة ١٨٦٠ الى سنة ١٩٠٤، والذي جمع في شخصه ، بدرجة فريدة ،بين رجل الاحلام ، ورجل الافعال . »(١) .

وقبل ان نتناول الكتاب الذي جر ستيوارت اليه طموحه ، هناك بضعة اشياء يجب ان تقال .اولها ان الكتابة عن اليهود في اوروبا الغربية ، وفي بريطانيا بوجه خاص ، اشبه بالكتابة عن الله وانبيائه في العالم العربي ، عملية محفوفة بأفظع المهالك . وحقيقة انه لا يعلم خبايا النفوس والعقول الا علام الغيوب ، لكن الظاهر المرئي ان كتلة صلدة كبيرة لا تتزحزح ولا تلين من الفكر الاوربي الذي يؤثر في عقول الكافة تتخذ منطلقها الاساسي من ايمان حار بأن اليهود كانوا وما زالوا على حق ، وكل من عداهم من خلق الله كان وظل وسوف يكون دائما على باطل . ولنذكر ونحن نقول ذلك أن اول دعوى من دعاوى اليهود تقول انهم « شعب الله المختار » ، اي انهم ـ كما كان الالمان يقولون عن انفسهم في ظل النازية وحاربهم العالم كله ليجعلهم يبتلعون ما قالوا ـ شعب « فوق الجميع » . وببساطة ،يعامل الاوربيون ، وخاصة الانجليز ، اليهود باعتبارهم كذلك فعلا . وقل ما شئت في ذلك الضرب من البلاهة الانسانية والشبق الى الانسحاق الذي يشبه خرف الشيخوخة لدى شعوب يبدو أنها بانت مشرفة على ختام ايامها ، بل وقل ان الاوربيين والانجليز بخاصة سيجدون انفسهم ذات يوم (قد لا يكون بعيدا كل ذلك البعد) واليهود جالسين فوق وجوههم . لكن ذلك لا يغير من واقع الامر شيئا ، وواقع الامر ان اليهود توصلوا الى ان يجعلوا انفسهم ـ بالنسبة الى اولئك الناس ـ كائنات عليا ، ويجعلوا الكتابة او الحديث عنهم عملية محفوفة بالمهالك . والانجليزي العادي ، رجل الشارع « الكوكني » المسكين ، لا تكاد تقول « يهود » امامه حتى ينظر وراء من فوق كتفه . فما بالك بالكتابة عن هرتسل ذاته ؟

والامر الثاني الذي يحسن الا يغيب عنا ونحن ننظر في الطريقة التي خاض بها ستيوارت في تلك « السيرة العطرة » ان اليهود ـ فيما يتعلق بالعقل الاوربي ـ باتوا يجلسون الان مضطجعين بارتياح بين منطقتين من ضباب عاطفي لا سبيل الى التعامي عنه او الانقاص من فعاليته الهائلة في مجالات الشوشرة على العقول ، واصابة الاذان بالصمم ، والعيون بالعمى . فوراءهم الان حائط صلد اشبه بسور الصين العظيم قدت احجاره من الاعيب الحواة والتسلل الى عقول الاوروبيين بالخديعة والمسكنة والمكروالتظاهر بالطيبة والذل والانسحاق

---

(١) الصفحة السابعة من التصدير .

والاستشهاد ،عبر تاريخ طويل بلغ ذروته بحكايتهم مع النازية ،التي قد تنضج خباياها وتبين حقائقها ذات يوم اذا ما قدر للاوروبيين ان تخف قبضة اليهود الخانقة على عقولهم وافواه مؤرخيهم واقبيه وثائقهم ، والتي احسنوا استغلالها في اصابة اولئك الاوروبيين بعد محاولات استمرت قرونا باكملها ـ بعقدة ذنب فظيعة تجعلهم يبدون احيانا اشبه بقطعان متخلفة عقليا من صغار يسيل لعابهم على ذقونهم لمجرد قولك « معاداة السامية » بمحضر منهم . وغير ذلك السور العظيم من الاحساس بالذنب الاوربي تجاههم ، يجلس اليهود متربعين بارتياح على ادمغة الاوروبيين وامامهم ، كالدرع المتين ، تاريخ اخر طويل ، تاريخ كراهية الاوربيين للعرب ، ونفورهم منهم ،وازدرائهم لهم . تاريخ مسموم ضارب في القدم ، منذ قرصنات الحروب الصليبيه وحروب التجارة التي خاضها الاوربيون مع العرب قديما ، زادته سما حروب التحرير والتاميم التي خاضها العرب مع الاوروبيين حديثا ، ويحاول اليهود الوصول به الى قاع جحيم مستعر من المقت والحقد والرغبة في القتل من خلال محنة التضخم ، والازمة الاقتصادية، وازمة النفط .

والامر الثالث ، وليس الاخير ،الذي يحسن ان نذكره ،انه بينما بعدت الشقة الحضارية بين العرب والاوربيين ، عرف اليهود كيف يتعاملون مع الحضارة الصناعية للاوروبيين ، وعرفوا كيف يجعلون من كل عالم او فنان يهودي علما من اعلام نهضة الغرب وتقدمه ، فتوحدوا بالعالم الغربي ، واسبغوا هويته عليهم ، واسبغوا هويتهم عليه .

مولد الذئب

كما تقول معظم الاساطير التي ابدعها الخيال الانساني حول المقدسين والمبعوثين من عند الالهة والابطال وصناع الخوارق والمعجزات ان اولئك البشر « المتفوقين او انصاف الالهة » قد سبقت مجيئهم الى الارض وواكبته او اعقبته علامات ونذر ، تقول اسطورة هرتسل التي يستقصيها دزموند ستيوارت ليجلو حقيقة الصورة التي ظلت اشبه « بأيقونة رسمت على زجاج ملون » ان مولد الذئب (وولف) هبة الله (تيودور) هرتسل سبقته وواكبته وأعقبته نذر وعلامات كثيرة .

« كانت بلدة « بست » مسقط راس ملائما لرجل من ابرز من انجبه عصره ، كان المحرك الاول لمغامرة من احفل مغامرات القرن العشرين بالمخاطر . ولقد تصادفت مع مولده احداث ذات اهمية رمزية ». (ص ٤) .

لم تزلزل الارض ، ولم تبرق السماء وترعد ، ولم تظهر في الافق نجوم او شفق احمر ، او شيء من هذا القبيل ، لكن وقعت احداث ذات اهمية رمزية .

حملت « بهبة الاله » امه جانيت ، لابيه يعقوب هرتسل ، خلال السنة التي فتح فيها المعبد اليهودي الكبير ابوابه، بعاصمة المجر . فكان مولده ، اذن ، كان ايذانا بصعود نجم اليهود . فالواضح ان اولئك اليهود ، الذين كانوا يمثلون حوالي واحد على عشرين من اجمالي عدد سكان المجر (ص ٩) امتلكوا من ثروة المجر ما مكنهم من اقامة ذلك المعبد ، في سنة ١٨٥٩، بكلفة جسيمة ـ بمقاييس ذلك الوقت ـ بلغت ستين الفا من الجنيهات الذهبية . ومن فرط بذخ المعبد ، وارتفاع كلفته ، وصفه حبر متقشف بانه « نتاج غرور اناس اتخمهم الثراء وكظهم حتى لم يترك في نفوسهم مكانا للتواضع »ووصفه حبر اخر مجري تامرك فيما بعد بانه « اشبه بمركبة فاخرة من عابرات المحيط تمجيدا لله . »(ص ٤) ويقول ستيوارت ان بلدة « بست » التجارية ـ الصناعية الثرية ،التي اقيم فيها المعبد ، كانت تزداد ثراء من يوم الى يوم ، وان معبدها اليهودي ذاك كان ينتصب مزهوا على راس شارع طويل خصص لتجارة الطباق الذي كان ياتي من اراضي البلقان العثمانية . ولصق واجهة المعبد اليسرى كان بيت من ثلاثة طوابق ، يدور ـ راسخا ، بورجوازيا ، ناطقا بالثراء ـ حول فناء داخلي ، وكانه عالم مقفل على ذاته ، في ذلك البيت ،لصق المعبد ، على راس شارع الطباق ، ولد ابن يعقوب ، وسماه اهله بثلاثة اسماء : اسم مجري ـ تيفادار ، واسم الماني ـ فولف تيودور ـ واسم عبري ـ بنيامين زييف .

وكانما تمهيدا لمجيء هرتسل ، كانت المجر قد دخلت عصر الثورة الصناعية ، فوجدت ـ من جانب ـ الارض التي اتاحت لبني شعبه ان يرسخوا اقدامهم بطريقة ربما لم تسح لهم من قبل ، بين الشعوب التي عاشوا « في ضيافتها » رافضين ان يندمجوا او يذوبوا فيها، عن طريق توثيق رباط مصالحهم ـ كممولين اثرياء اساسا ـ بمصالح البورجوازيه التي كانت آخذة في تسلم ادارة المجتمعات الاوربية من سادتها القدامى ، وكانت ـ بغير شك ـ في حاجة الى كل ما يمكن ان يزودها به المال المتوفر في ايدي التجار والمرابين اليهود من امكانيات تتيح لها تطوير سلاحها الفعال في معركتها مع السادة القدامى : الصناعة ، والتنظيم الراسمالي للمجتمع . وستيوارت لا يتناول بدايات زواج المصلحة هذا بين اليهود الذين كانوا قد كدسوا في خزائنهم ثروات لا يستهان بها من اموال الشعوب التي « استضافتهم » اتاحت لهم اقامة ذلك المعبد الباذخ وغيره ، وبين طبقه ارباب الاعمال من اصحاب المصانع والبنوك ، ذلك الزواج الذي ما زلنا نعيش نتائجه المأساوية في العالم العربي دون ان يكون لنا ذنب فيما يخصه (الا ذنب القبول بالفقر والتخلف والبقاء ، حتى عهد ليس ببعيد ، بعيدا عن مشارف العصر الذي اتاح لليهود عقد زيجتهم تلك) ، نقول ان ستيوارت ، وهو يستظهر « العلامات » التي « ظهر » في ظل رموزها هرتسل ، لم يتناول تلك الزيجة مواجهة او يحاول دخول دارها متسمعا ربما بعض اسرارها العائلية ، بل اكتفى بالوقوف خارجا ، على الطوار الاخر ، متأملا ، بغير الحاح او كبير فضول ، سقوط النظام القديم ، وانتهاء عصر « المفهوم القديم للدولة (الذي قام) على ان البشر رعايا الحاكم المعين من قبل الاله »(ص١٠).

ومن جانب اخر ، كانت المجر ، قبيل مولد هرتسل ، قد فتحت الباب ، ليهودها ان يدخلوا المجتمع الاوربي الصناعي البورجوازي الجديد منذ بداياته الاولى ، وان يدخلوه كقرناء وشركاء ، لا كدخلاء ومنبوذين . ومرة اخرى يشير دزموند ستيوارت الى الموضوع من بعيد، بغير الحاح او فضول ، فيقول ان المجر ظلت الى ما بعد خطوتها الاولى داخل عصر الثورة الصناعية (الذي تمثل توقيع صك دخولها اياه في اقامة القنطرة الكبرى المعلقة فوق الدانوب ، التي اتاحت توحيد بلدة « بست » ببلدة « بودا ») ظلت الى ما بعد ذلك الدخول بوقت طويل متشبثة بمجتمعها الارستقراطي القديم . ويشير ستيوارت الى ذلك من خلال ما يقوله عن اقامة « الكازينو الوطني » بعاصمة المجر ، لمحاكاة نوادي « البال مال » الانجليزية بلندن ، « لكن المجريين من الطبقة المتوسطة ، واليهود ، لم يكونوا محل ترحيب هنا »(ص٦). اي ان المجر ، وان اخذت في محاكاة نمط الحياة الانجليزية ، وبدات في استيراد الثورة الصناعية ، ظلت لامد متشبثة بارستقراطيتها القديمة . ولقد كانت مشكلة اليهود في تلك المجتمعات انهم وفدوا اليها ، دخلاء ، وظلوا دخلاء ، في ظل النظم الاجتماعية القديمة التي لم تفتح سبيلا امامهم الا ان يكونوا مرابين ومقرضين لنبلائها وسادتها ، وكما يقول تاريخ اوربا ، مثيرين للحروب بين ملوكها واباطرتها ، متربحين بالتجارة بين المتحاربين . فهم ـ كما يقول دزموند ستيوارت وهو واقف خارجا بباب « الكازينو الوطني » ببودابست ـ قد ظلوا خارج الابواب، الى ان جاءتهم الثورة الصناعية وما ترتب عليها من انتقال ادارة المجتمعات الاوربية التي غيرتها تلك الثورة من ايدي النبلاء والاقطاعيين الى ايدي اصحاب المصانع والبنوك

فاتاحت لهم ما لم يتح لهم عندما وفدوا على تلك المجتمعات فوجدوا انماط حياتها الثقافية والاجتماعية مستقرة ومقفلة في وجوههم، اتاحت لهم فرصة ان يبدأوا مع المجتمعات الرأسمالية الجديدة وهي وليدة بعد ، بوصفهم شركاء لمديريها وسادتها الجدد . ولقد استمرت هذه الشركة حتى الان . ولعل بلدا من بلدان العالم الرأسمالي لا تفصح فيه تلك الشركة عن طبيعتها وبنيتها ونتائجها كبريطانيا . وفي بريطانيا أيضا تفصح مفاهيم الليبرالية والديموقراطية الغربية عن كونها المنفذ الاخر الهام (غير المشاركة في التمويل واقامة المصانع والبنوك وشركات التجارة) الذي اتيح ليهود أوربا ليدخلوا منه الى حيث هم الان. وتلك زاوية يتناولها ستيوارت بشيء من التفصيل ، وان ابتعد عن التحليل واستقصاء ما هو اعمق من السطح المرئي :

« في سنة ١٨٤٨ ، بعد ثورة فرنسية جديدة ضد البوربون ، (وبالتحديد) في ٣ مارس من تلك السنة ، تفجرت في المجر ثورة تحت القيادة المهمة للزعيم المجري لاجوس كوزوث الذي طالب بالحكم النيابي للمجر ، والحكم الدستوري لسائر بلدان امبراطورية الهابسبورج . وقد اطلقت مطالب كوزوث سلسلة من الثورات في النمسا ذاتها ، حيث اسقط مترنيخ ، وفي ايطالية . وقد منيت حركة الاستقلال المجري بالهزيمة على يدي قوتين : تحالف عقد على عجل بين النمسا وروسيا ، والمقاومة التي قوبلت بها افكار كوزوث من جانب التشيك ، والرومانيين ، والصرب ، في الجزء المجري من الامبراطورية. وهكذا استطاع النمسويون أن يعيدوا فرض سيطرتهم من جديد بينما هرب كوزوث ليقضي ٤٥ عاما في المنفى بتركيا ، وانجلترا ،واميركا، وايطاليا . وكان كوزوث ـ خلال حكمه القصير ـ قد عمل على استمالة يهود المجر لقضية الماجيار باعلان عتقهم . غير ان ذلك العتق ، جنبا الى جنب مع حرية المجر ، انتكس مؤقتا على ايدي الهابسبورج المنتصرين » (ص ٩)

والقصة واضحة . وربما ـ لتوضيحها اكثر ـ يستطرد ستيوارت قائلا ان السنة التي ولدفيها هرتسل كانت حقيقة نقطة محورية في التاريخ الاوربي الحديث ، فقبل ذلك بسبعين عاما ، كانت الثورة الفرنسية قد اعلنت حقوق الانسان واكدت « ان البشر يولدون ويظلون احرارا ومتساوين في الحقوق ، وان ضروب التمايز الاجتماعي لا يمكن ان تقوم الا على اساس المنفعة العامة وحدها » .(ص ١٠).

عهد الآله وختان اليهود

يبدو من كتاب ستيوارت ان نبوغ بني جلدته في اختيار الطريق الوسط هداه الى مخرج بارع من مأزق ما من شك في انه تحلى بقدر كبير من الشجاعة الادبية ليقبل اصلا بالدخول فيه . ومن ناحية الصنعة ، يمكن القول اجمالا ان اختيار الكاتب لطريق الحل الوسط افاد كتابه ولم يضر به . ولكن يبقى المضمون الفكري ، ويبقى ان نستوضح من خلال قراءتنا للكتاب مدى تأثير ذلك الحل عليه : هل انتقص من قدرته على التكلم بالحق ، ام أتاح له ان يصل من الطريق الممكن (بالنسبة لكاتب اوربي) الى الصدق الصعب ؟ والحل الذي اختاره دزموند ستيوارت متمثل على طول الكتاب وعرضه في لوذ الباحث في التاريخ الحديث وكاتب السيرة ـ ابتغاء للسلامة ، ربما، او قبولا بالممكن ـ بصنعة الروائي وحفوفه قبل قارئه . وباختصار ، يعمد الكاتب الى الاضمار والايماءة (التي قد تكون دائرية احيانا) بدلا من الجهر والتحديد ، ويختار وصف السطح تاركا للقارىء استشفاف ما يريد ذلك الوصف قوله ، كأي روائي يوقفك على ما يدور داخلا ، بأعماق النفوس ، عن طريق سرد الافعال ، ووصف المرئي خارجا ، واجراء الحوار بين الشخوص . والاسلوب ،في ذاته ، ممتع ، ويغري القارىء (وقد يضطره ، في مواضع بعينها) الى اعادة القراءة، وبالتالي تعمق المعنى الذي يرمي اليه الكاتب بشكل يفوق ولا شك ما يحققه الاسلوب التقريري المباشر . ولقد نرى ان ذلك كله من قبيل اللف والدوران فيما لا مجال فيه للف او دوران ، ولقد نرى ايضا ان الاسلوب اسلوب تعمية وايهام يتسم بالبراعة والخبث اكثر مما يتصف بالدقة والوضوح والتحديد ، اساوب يتيح للكاتب ان يطالع كل جانب بوجه ، وان يدع كلا يقرأ في كتابه ما يوافقه او ما يتفق مع ما يريد ان يأخذ به من افكار . ومما قد يؤيد ذلك ، الاستقبال الحسن الذي استقبل الكتاب به في الصحف الاميركية ، على النحو الوارد بظهر غلاف الطبعة الانجليزية . وكما قلنا ، ليس امامنا الا ان نذهب مع الكاتب وكتابه الى نهاية الشوط قبل ان يتاح لنا ان نقطع في شيء من ذلك برأي . وخذ مثلا حكاية الختان (الممتعة بحق) التي شغلت حيزا هاما من الفصل الثاني بالكتاب. ما الذي اراد ستيوارت قوله من خلالها ؟ .

يقول الكاتب ان الختان ـ باعتباره من الطقوس الدينية ـ اكثر قدما من العماد عند المسيحيين ، وان شعوب الشرق الاوسط كانت تمارسه من قبل ان يأخذه عنهم ويطبقه البطارقة اليهود وقبل ان يحوله كهنة بني اسرائيل الى تقنين ديني ، وانه ما زال معمولا به بين كل المسلمين والمصريين المسيحيين اي الاقباط ـ وكما هي العادة نجد المصريين القدماء في بداية القصة . فالحفر البارز بالقبور المحيطة باهرامات الاسرة الخامسة في سقاره تثبت ان المصريين كانوا يمارسون الختان قبل ان تبتلي مصر بمقدم اليهود جياعا الى واديها المضياف الطيب بألف عام على الاقل . (ص ١٢) بل ويمعن ستيوارت في الجراة اكثر من ذلك فيقول ان اول ذكر للختان في الكتاب المقدس يرد بعد ان يكون سفر التكوين (اول اسفار العهد القديم) قد اكتمل ثلثه الاول . ورغم ان ذلك السفر يتصدر الاسفار الخمسة التاريخية في كتاب العهد القديم ، فان تاريخ كتابته وهوية مؤلفه (او بالاحرى هويات مؤلفيه) محل نزاع. فاليهود المتمسكون بأرثوذكسية العقيدة يؤمنون بأن ذلك السفر ، كالاسفار الاربعة الاخرى ، جزء لا يتجزأ من التوراة (التعاليم) الذي انكشف لموسى او اوحي اليه به . غير ان هناك من المتخصصين من يقرر ان تلك الاسفار قد كتبتها اقلام الكهان اليهود بعد المنفى لتطابق التقاليد والاساطير العبرية متفاوتة التواريخ متباينة القيمة التاريخية . ويستشهد ستيوارت (او يستند بظهره ابتغاء للسلامة) الى قول ابرام ليون ساخار في كتابه الرائع « ان امعان الفكر بصبر واناة في الاسفار التاريخية الاولى من العهد القديم قد جعل من الواضح ان تلك الاسفار ليست الا تجميعا قامت به ايد متعددة وانها كتبت في فترات متباينة لاغراض مختلفة » (ص ١٢) .

فاليهود الذين سرقوا من مصر ماشية اهلها وذهبهم وفضتهم (لان الاله نبه عليهم بان يفعلوا ذلك في سبيل مجده) وسرقوا قبل ذلك فكرة الاله الواحد الجبار ذاتها من افكار المصريين (المحمومين بالتدين من قديم) ، لم يكن ليكبر عليهم ان« يقتبسوا » عن المصريين ايضا عادة الختان التي ما زال يمارسها اصغر فلاح في مصر بغير تفكير . فهي عند المصريين عادة لا اكثر . وعند الشعوب التي تمارسها عادة لا اكثر . وربما كان منشأها صحيا ، او سحريا ، او هذا وذاك معا مع ايمان بأنها تفيد الباه . او اي شيء دارج من هذا القبيل . لكنها بين ايدي اليهود تحولت الى حكاية الهية كبرى .

ولقد قلنا ان ستيوارت امعن في الجراة ، لا لانه خاض في حكاية الاسفار الخمسة ، فهذه مطروحة وحولها جدل كثير ، ولكن لانه ـ بوضعه موضوع تأليف تلك الاسفار على ايدي الاحبار اليهود في اوقات متباينة لتطابق القراءة التي ابتغوها للتاريخ (والحقيقة ان اليهود سبقوا اصحاب « ١٩٨٤ » في رواية اول بقرون عديدة في مجال شطب التاريخ وكتابته مثنى وثلاث ليطابق المكتوب الباقي بين ايدي الناس منه يريدون هم ان يعتقد الناس انه قد حدث) نقول ان ستيوارت بوضعه تلك الحكاية بعد قوله مباشرة ان الختان منقول ثقافيا عن شعوب اخرى ، قد شارف القول بان هؤلاء

الناس ـ من قديم ضارب في القدم ـ ملعقون . وخطورة الايحاء بأنهم ملعقون في هذا الموضع بالذات تأتيه في ان الامر معلق بمعيار من المعايير التي تجعل اليهود شعبا اسمى ومختاراً من الاله ! ولا يضحكن القاريء لان الامر متعلق بتلك القطعة من الجلد في طرف القضيب . تلك القطعة التي يطيرها المبضع او تقطعها السكين من جسد اي كان قد تكون حقيرة الشأن ومضحكة . اما من الجسد اليهودي فانها ثمينة ودليل قيمتها الكبرى ان الاله ذاته ظل يلاحق ابراهام ويجزل له الوعود ويغدق له المغريات متسولا اياها . وتلك حكايته يرويها ستيوارت بأسلوب فكه خفيف الظل ، فيقول انه « فيما يرويه سفر التكوين » ، تقدم الله من ابراهام ، ذلك البدوي الطاعن في السن الذي تقدم مما بين النهرين ، عارضا عليه صفقة لا غش فيها ، وبموجب تلك الصفقة تعهد الاله بأن يكثر أمما باكملها من صلب ذلك البدوي العجوز. فنسل ابراهام، كنسل بانكو (الشخصية الشكسبيرية في فاجعة « ماكبث ») سيصبح كله، من ذلك الوقت فصاعدا، ملوكا . (ولا يفوتنا وستيوارت يسوق هذا التشبيه ان الوعد الذي صدر لبانكو في ماكبث بأن يصبح نسله كله ملوكا صدر من أفواه الساحرات ، ولشكسبير بضعة ابيات جميلة تعليقا على ذلك الوعد) .

لكن كيف يصبح من ينحدرون من صلب ابراهام ملوكا وهم بدو رحل لا وطن لهم ؟ ها . ستصبح ارض كنعان التي كان ابراهام وقومه عابري سبيل فيها يطيقهم اهلها بالكاد ، ستصبح كنعان هذه ملكا خالصا لسلالته الى الابد . ومقابل ماذا ارض كنعان هذه ، وتحول الرعاة الرحل الذين لا وطن لهم الى ملوك ؟ مقابل تلك القطعة من الجلد التي في طرف القضيب التي تضحك منها أيها القاريء دون ان تفطن الى خطرها . وهل انت أعقل من الخالق ذاته ؟ ان كان هو الذي ذهب يسعى وراء ابراهام ليرجوه أن يعقد ذلك الاتفاق المجزي معه ، فأي حق لنا نحن الاميين ، الذين خلقنا ذلك الاله عينه سائمة ليركبها شعب الملوك المختار هذا، في ان نتساءل او نضحك ؟ الم تعلم بما فعله الاله مع موسى ، وام موسى ؟ لقد اكتشف الاله ان موسى لم يف بالعهد ولم يتخلص من تلك القطعة من الجلد ، فاستشاط غضبا لذلك الاخلال بالعهد الذي بينه وبين ابراهام ، ولذا فانه قطع على موسى طريقه وهو عائد من مدين بأطراف سيناء الى مصر التي كان قد هرب منها لينجو من القصاص في جريمة قتل. وما من شك في ان اله موسى ذاك الذي طارده ليقتله لانه لم يقطع من طرف قضيبه تلك القطعة من الجلد كان الاله الصحراوي يهوه الذي « اقتبسه » موسى من حميه الاممي الكاهن واستخدمه لتجسيد مفهوم الاله الواحد الذي « اقتبسه » ايضا من المصريين الذين استضافوا شعبه السفاح ببلاهة قرونا باكملها واغدقوا على ذلك الشعب البدوي الذي جاءهم عاريا همجيا جائعا من خيراتهم وحضارتهم العظيمة . ويحكي لنا ستيوارت ما تعلمه في المدارس الانجليزية من حواديت الكتاب المقدس فيقول ـ غير دار، بحكم الاعتياد، كم يبدو ذلك الاله زريا ومضحكا وقميئا وهو يطارد ذلك القاتل الابق ليقتله لذلك السبب السخيف ـ انه « تصادف ان قابله الاله في الخان (وما الذي كان يفعله الاله في مكان مريب كهذا ؟) وهم بقتله ، غير ان المرأة زبوره (أم موسى) كانت اخف يدا من الاله واسرع بديهة ، فسارعت بقطع تلك الجلدة من طرف قضيب ابنها والقتها ارضا وهي تصيح بأن موسى قد بات عريس دم لها » . (ص١٢) عريس دم ! هل هناك ما هو اكثر رومانسية وحفزا للخيال من هذا ؟ عريس دم ! حكاية مهولة هذه . ومهما كان الرأي في ذلك الشعب المريض بجنون العظمة وجنون القتل والسرقة من قديم فلا شك في انه من قديم ايضا شعب موهوب بحق فيما يخص البراعات المسرحية . وسواء كانت المرأة زبورة ام موسى هي التي واتتها حقا تلك العبارة البارعة التي غطت بما فيها من عنصر مسرحي واغراب على سخف الحكاية كلها ام كان الاحبار زرق الناب الذين الفوا ذلك الهراء هم الذين وفقوا اليها ، فالذي لا شك فيه ان المرء لو توقف قليلا ، واعمل عقله فيما وراء التضخيم العبراني والبهلوانيات اللاهوتيه ، سيجد نفسه مواجها بادراك محزن يتمثل في انه يكون على قدر من السذاجة لا يوصف اذا ما أخذ ذلك الاله الذي تصوره الحكاية مأخذ الجد . والحقيقه ان ام موسى تبدو لنا في الاحدوثة اكثر فطنة من الجميع وادرى بصفر عقل ذلك الاله الذي يطارد الناس في الطرقات ليقتلهم لانهم لم يختتنوا وكأنه مصاب بهوس اسمه الختان، ولا أدل على ادراكها لسفاهة مثل ذلك الاله (كما تصور الاسطورة) من انها سبقته وشفت غليله فقطعت جلدة قضيب ابنها فأنفثأ على الفور غضبه . والحقيقة أن القاريء لهلوسات العهد القديم التي تكون احيانا ممتعة وفي أحيان كثيرة مضحكة لا يمكن ان يفوته ادراك الحقيقة الماثلة في ان اليهود ، رغم استنادهم بظهورهم الى ذلك الاله الذي يتخذونه من قديم تكئة لتبرير كل جرائم السرقة والقتل التي يقطر بها تاريخهم الدموي، يحسون تجاه الههم بازدراء لا يخفونه الا تحت قشرة رقيقة للغاية وهشة من اللغو اللاهوتي . وتاريخ اليهود كما هو وارد بالتوراة حافل بالثورات العارمة لكبارهم وشيوخهم وقادتهم عليه « لصلابة اعناقهم » وتمردهم وعنجهيتهم تجاه يهوه القمري ذاك الذي سرقه موسى من كاهن مدين قبل ان يرحل عنه ، تماما كما سرق ماشية المصريين البلهاء وذهبهم قبل ان يغرب عن بلادهم المبتلاة بطيبتهم وبلاهتهم . وما تلك الثورات الكهنوتية العارمة المتكررة الا نتيجة لذلك الازدراء الذي ابداه اليهود دائما تجاه اله اذلوا اعناق البشر به . وليس ذلك بغريب عليهم (*) . وليسأل القاريء المثقف نفسه : من اين جاء اسم اسرائيل ؟ وليرجع الى اساطير العهد القديم ليجد ان يعقوب تحدى الاله ذاته ان ينازله وظل ينازله طوال الليل حتى غلبه ، واذ ذاك قال له الاله « لانك جاهدت وغلبت يصبح اسمك اسرائيل » (**) .

ولكن حاول الا تقول شيئا من هذا لاحد . ولذلك فان الناس بدلا من أن يغرقوا في الضحك يأخذون تلك الهلوسات جميعا مأخذ الخطورة والجد المأساوي . ويتقعرون ويتبحرون في بحثها . واصغ لستيوارت وهو يقول ، غارقا في البحث عن المعاني الميتافيزيقية والالهية العميقة لحكاية الختان اليهودية هذه : « وقد اوحت (مغامرة موسى وامه مع الاله المصاب بهوس الختان) الى البعض بأن العبريين الاول اعتبروا الختان ، فيما يحتمل ، كغيرهم من الشعوب التي مارست الختان ، كضرب من الشعائر السابقة للزواج . (ولو ان ستيوارت كان يجب ان يستحي ، لان اخذ الحكاية ذلك المأخذ معناه تفسير صيحة المرأة زبورة ، بعد ان ختنت ابنها ، بعشق المحارم الذي تسلط دائما على نفوس شعبها) . غير ان ستيوارت لا يتوقف عند افكار كهذه ، فيستطرد قائلا ان تلك النظرة الى الختان قد فسرت بتفسيرين : اولهما ان الختان اعتبر وسيلة لتسهيل الاتصال الجنسي ، والاخر ان اراقة دم الذكر من ذلك المكان اعتبرت تقدمة لاسترضاء قوى التناسل المظلمة.(ص ١٣) وذلك التفسير يبدو وثنيا بعض الشيء ومدخولا بعناصر شيطانية . فاية قوى مظلمة تلك التي يتحدث عنها ؟ الحقيقة ان ستيوارت حذر ، لكنه ليس جبانا . فهو يقول : « والواقع ان تبدي الاله لعباده الاول كعمود (من سحاب بالنهار ومن نار بالليل)كان متفقا تماما مع تلك النظرة الى قواه (قوى التناسل المظلمة » » (ص ١٣) ولا ندري لم لم يشر ستيوارت الى بحث جرانت آلن عن تطور فكرة الالوهة . فالاله كان في بداية الامر متخذا لدى عباده صورة عضو تناسل الذكر ، مختتنا ، في حالة انتصاب . لكن ستيوارت يخبرنا ان الحكاية كما هي واردة بسفر التكوين تبين « ان الختان عند العبريين كان له مغزى يختلف تماما عن مغزاه لدى غيرهم ممن مارسوه . فهو لم يكن مجرد علامة قبلية ، لان الناس كانوا قد تخلوا عن العري

(*) فما اكثر الملاحدة بين زعماء الصهيونية ومؤسسي دولة اسرائيل.
(**) سفر التكوين ـ الاصحاح ٣٢ ـ ٢٤/٢٩ .

من زمن طويل ، كما انه لم يكن اختبارا قاسيا من الاختبارات التي كان يتعين على صغار الذكور ان يمروا بها في مرحلة البلوغ ليدخلوا مرحلة الرجولة ، كما انه ـ بغير شك ـ لم يكن معمولا به للاسباب الصحية التي قد تضعه في قائمة ما يوصي به الاطباء المحدثون . بل كان علامة (وانظر اين !) على « الالتزام الروحي » ! (ص ١٣) .

وحقيقة ان خيرة العقول يمكن ان تعمى عن رؤية السخف الذي يكاد يثقب العين ، تحت تاثير الاعتياد . فاي علاقة تلك التي يمكن ان يجدها انسان مفكر بين الختان والالتزام الروحي ؟ نعم ان الانسان درج من قديم على تشويه جسده لاسباب « دينية »، ولكن ذلك ضرب من الهستيريا يصعب الخلط بينه وبين الروحانيات او القيم الاخلاقية من حيث هي كذلك ، ومع ذلك ، فاي شيء يمكن لاوربي مسيحي درج على اعتبار العهد القديم (بكل ما فيه من اشياء جنونية بحق) جزءا لا يتجزأ من كتابه المقدس ، وبالتالي من تراثه الروحي ، اي شيء يمكن لذلك الاوربي المسيحي ان يقوله في شان الديانة التي بزغ منها مفهوم الاله الواحد الذي تقوم عليه ديانته هو ؟ في مواجهة حكاية الختان الزرية هذه التي تمثل الهيكل التحتي او الاساس الذي انبنى عليه صرح ديانة العهد القديم ما الذي يمكن قوله الا : ما هذا الهراء الفارغ ؟ (وفي تلك الحالة يكون القائل قد وضع نفسه في موقف فكري واخلاقي لا يحسد عليه، بالنسبة لتراثه الروحي كله ، دع عنك بطبيعة الحال الموقف بالغ الصعوبة والخطر الذي يضع نفسه فيه كفرد عليه ان يتوام لكي يعيش) ، او يقول : آه . لقد يبدو هذا الكلام غريبا ، لكنه يجب ان يؤخذ في سياقه التاريخي والحضاري ، وهو ـ متى اخذ ذلك المأخذ ـ سيكشف لنا عن اشياء ابعد ما تكون عن السخف الزري الذي قد يتراءى لاول وهلة ، سيكشف لنا عن كونه ـ في حالة اليهود ـ معبرا عن اشياء سامقة ، كالالتزام الروحي مثلا (!) .

ويبدو ستيوارت ، في هذا الفصل الهام حقا من كتابه ، حائرا متراوحا بين الطرفين المتضادين اللذين يتمثلان في هذين التساؤلين : ما هذا الهراء ؟ و : الختان تعبير عن الالتزام الروحي ؟ وله ـ بالحقيقة ـ عذره ، لاسباب كثيرة ، ليس اقلها شانا ما تثيره في نفس المرء (متى كان كارها للتعصب) مواقفه « النهائية » او القطيعة بشان اية مجموعة من البشر ايا كان لونها او كانت عقائدها . والحقيقة ان قراءة التوراة وتواريخ اليهود تعتبر محنة اخلاقية داخلية للكاتب المؤمن بان البشر بشر ولا شيء غير ذلك ، وان احط ما يمكن ان ينحط اليه الكاتب (او اي امرىء) هو ان يتعصب ضدهم او يكرههم لانه يخالفهم الراي او العقيدة او يختلف عنهم ثقافة او لونا او شكلا . ففي التحليل النهائي يبدو البشر جميعا لمثل ذلك الكاتب مساكين ، بنفس القدر ، وركاب قارب واحد اعطي لهم وفي قاعه ثقب لا سبيل الى سده . ومع ذلك ، ومع كل ايمان بان الاخر اخي ونظيري ، لماذا تنفر الحواس جميعا ويغلظ القلب ويتباعد بازاء القبح الخارجي والداخلي والشر والتشويه ؟ وان وجدت نفسك لصق انسان مثلك لكنه اجرب ، افلا تتباعد برغمك ؟ والحقيقة ، فيما يخص ذلك الشعب ، ان المرء يمضه ويحيره احساس مثل ذلك . وكل اولئك الذين احسوا ذلك الاحساس تجاه اليهود على مر العصور ، كانوا جميعا على خطا ، وكانت مشاعرهم وليدة الترفض ، وضيق الروح ، والتعصب ولا شيء اخر ؟ كم من ملايين البشر الطيبين على مر العصور نفروا من اليهود وتباعدوا عنهم ورفضوهم ؟ هل كل البشر اشرار واليهود دائما ضحايا الظلم والبغي من جانب الاخرين ، ام ان شيئا في بنية اولئك الناس ، كبشر ، يستجلب كل ذلك ويثيره ، المرة بعد المرة بعد المرة على مر العصور ؟ وليس القرآن وحده الذي يذكر خصال اليهود القبيحة وبغيهم وغدرهم وخيانتهم . العهد القديم ذاته ، والعهد الجديد ايضا حافلان بذكر تلك الخصال غير المحببة الى نفوس البشر . والذي لا شك او مجال للجاجه فيه ان اليهود قد احسوا دائما بانهم نسيج وحدهم وانهم صنف اخر غير سائر خلق الله، واصغ لهذا القول الذي يورده ستيوارت من العهد القديم ، مرة اخرى عن حكاية الختان : « ان كل من ظل بغير ختان سيكون من ابناء بليال ، من ابناء الهلاك والضياع الابدي » ! لماذا ؟ « لان كل الملائكة كانوا هكذا (اي مختنين ؟) منذ بدء الخليقة ، وغضب الله سوف يشتعل على ابناء العهد اذا ما جعلوا اعضاء اجسادهم تبدو كاعضاء اجساد الامميين ، ولسوف يطردون ويبادون من الارض » (ص ١٥) فمن فرط تقزز الاله من اعضاء اجساد الامميين (اي سائر خلقه من غير اليهود) يستشيط غضبا على ابناء العهد (شعبه المختار) اذا ما تركوا ذكورهم بغير ختان كاولئك الامميين السائمة وينذرهم بالطرد والابادة لا اقل . وليس هناك ما هو ابلغ واصرح تعبيرا من هذا الهراء عن جنون العظمة والاعتقاد بأن اليهود نسيج وحدهم . ومن ادلة السطوة التي باتت لليهود على عقول الغربيين ان كلاما كهذا يمكن ان يساق في اواخر القرن العشرين الذي باتت كل المقدسات فيه محل تساؤل وشك من جانب العقل الغربي ، دون ان توضع في آخر الاستشهاد علامة تعجب واحدة على الاقل . ولقد كانت الجماعات الثقافية دائما ذات حساسية بالغة لمثل هذه الاختلافات (وما من شك في ان قدرا كبيرا من نفور الغربيين منا نحن العرب راجع الى اختلافات يرونها فينا ، كاختلافات اليهود هذه) ، لكن اليهود قد توصلوا الى تكتيل كل ضروب اختلافهم تحت اسم السامية ، والباقي معروف . ولا ادل على نجاح لعبة « معاداة السامية » من ان خيرة العقول في العالم باتت تنسى ان العرب ايضا ساميون وتعاديهم باعتبار ان معاداة السامية (تلك التهمة القاتلة) تعني معاداة اليهود والصهيونية فقط ، اما غير اليهود (من المختلفين) ، حتى وان كانوا ساميين ، فصيدمباح. وتصور فقط لو كان كاتب انجليزي يكتب ما كتبه ستيوارت عن الختان عند اليهود ، عن الختان عند المصريين المساكين ، ما الذي كان ذلك الكاتب « المتحضر » الذي لا تروق له هذه الاشياء الدالة على الهمجية والتخلف حريا بان يكتبه عن المصريين ! واصغ لما يقوله دزموند ستيوارت :

« وبالنسبة للاموميين (الغربيين) ، يضفي ـ الختان على الوليد مكانة محفوفة بالغموض والاسرار، ويجعله مقضيا عليه بان يعتبر دائما (وقد يكون ذلك باحساس من الاحترام او من المقت تجاهه) غريبا و « آخر » . ولقد قصد من الناموس اليهودي ان يحقق بالذات هذا. فكل الطقوس والشعائر والممارسات الدينية لليهود صممت بحيث تذكر اليهودي ان الله قد رأى « بحكمته انه من الصائب ان يميز شعبا بعينه دون سائر الشعوب باعتباره الشعب الذي اختاره ذلك الاله ليكون حاملا لرسالة تحقيق الهدف الاقصى المتمثل في بلوغ وحدة كل شعوب الارض ، وهو الهدف الذي كشف عنه الله كغاية قصوى وغرض نهائي لكل تطور انساني » . (ص ١٥)

ومن هذا الاستشهاد يذهب ستيوارت الى حيث يقول لنا ان مذهب « الشعب المختار » يمكن ان يساء فهمه بسهولة ، فالاموميون احرياء بان يجدوا فيه دليلا على غطرسة اليهود وغرورهم ، بينما يرى فيه اليهود تبريرا لوجودهم . فهو « سلاح ذو حدين ». والحقيقة ان العقل يتوقف في كل مرة ، بازاء ما يكتب عن اليهود او ما يكتبونه هم عن انفسهم وعن الاخرين ، متسائلا عن مدى الصدق في الدعاوي الفلسفية التي تضع الفكر الافلاطوني والارسطي في اساس الفكر الغربي ، بينما يبدو السوفسطائيون وحدهم تماما يصولون ويجولون في الساحة . وانظر فقط كيف نرقى من الخاص الجزئي (تلك الجلدة التي تطيرها السكين من طرف القضيب اليهودي المبارك) الى العام والكلي :

« فالكتابات المقدسة والاحبار الذين فسروها تجعل من الواضح

ان اختيار الاله لذلك الشعب ليجعله حاملا لتلك الرسالة كان دائما اختيار الم وعذاب (استشهادا في سبيل الاله والبشر على السواء فهل هناك ما هو انبل من هذا الاستشهاد ؟) . فان كان اليهود قد انتقاهم الاله دون سائر النوع البشري، فما ذلك الا لانه (قد كتب عليهم المساكين) ان يؤدوا خدمة . وخدمة يعاقب النكوص عنها بصرامة ولا يكون النجاح فيها ـ في معظم الاحيان ـ الا اسما اخر للاستشهاد . فحتى في مجتمع الاسكندرية المستهلن كان اليهود يستثيرون الحنق والنقمة ـ رغم ما اتصف به ذلك المجتمع من تسامح نسبي ـ برفضهم المشاركة في اعياد الالهة الوثنية . ولقد كان الامتناع عن المشاركة في نشاطات الجماعة اول ما وجه من تهم الى ذلك الشعب الذي كرس نفسه (لله) وليست اتهامات الربا والتحكم باستخدام سلاح المال التي نسبت اليه بعد ذلك . (ولعل غيبة ستيوارت الطويلة عن بريطانيا انسته ما الذي تعنيه نشاطات الربا واحكام القبضة على اعناق الشعوب ، وافواه كتابها ،باستخدام سلاح المال) . وعندما افسحت الوثنية الطريق للمسيحية ،وباتت المسيحية ديانة منفسة في حملة صليبية قامت على اضطهاد من انكروا مذهبها ، انغلق اليهود على انفسهم اكثر وباتوا يعيشون في عزلة اكثر احكاما . (وماذا عن المجتمع الاسلامي الذي عامل اليهود بتسامح واوسع لهم صدره ؟ ماذا فعل اليهود فيه ؟ انفتحوا ؟) فانفصالهم وانعزالهم كانا نتيجة لانصياعهم لناموس حافظ على تكريسهم لوظيفة بعينها من خلال العديد من التفاصيل الدقيقة التي تعين عليهم مراعاتها للوفاء بمتطلبات ذلك الناموس ونواهيه ». (ص ١٦).

ولعلنا نقدر الان العبء المبهظ الملقى على عاتق اليهود والذي يقتلون من بدء تاريخهم ويذبحون ويسرقون ويغتصبون ليفوا بمتطلباته السامية التي فرضها الاله عليهم وجعلهم بسببها شعبه المختار. لكن ستيوارت ـ وان كان بريطانيا وتربى في تراث فكري واخلاقي لعبت فيه طويلا اصابع اليهود ـ ليس ساذجا . او قل انه يحتاط لنفسه . فهو ـ من جانب ـ يصدر عن منطلق ليبرالي متسامح ، بوصفه بريطانيا ومتحضرا (ولندع جانبا الخوف المحتمل من سيف « معاداة السامية » البتار المعلق فوق الرؤوس ، ولنفترض الامانة الاخلاقية كاملة)، ومثل ذلك المنطلق يتطلب بالاقل ، محاولة فهم حكاية الشعب المختار هذه بقدر كبير من التسامح وسعة الصدر . الا انه ـ من الجانب الاخر ـ ليس غافلا عما في الواقع الماثل حوله من حقائق تدحض كل هذا الهراء الفارغ. ولذلك فانه ـ بنبوغ انجليزي تقليدي ـ يتخذ الطريق الوسط ، او يلوذ بالحل الوسط (فيمسك بالعصى من منتصفها) ويقول : « والناموس اذا ما انكر ، او اعطي تفسيرا دنيويا، يمكن ان تبيت له نتائج خطيرة . وفي حالة اليهود يمكن ان يستخدم الاحساس بانهم شعب مختار في دعم الميل الانساني المعهود الى تمجيد الجماعة التي ينتمي اليها المرء ووضعها فوق كل ما عداها من جماعات بشرية (اي وضع اليهود فوق الجميع كالاريين) واذا ما اخذته جماعات اخرى واستخدمته ضد سلالة القبائل العدوة القديمة التي يحكي عنها العهد القديم فان النتيجة ستكون مذاهب عنصرية من اشد الانواع ضراوة » (ص ١٦) وبهذا يفسر دزموند ستيوارت قوله ان سلاح الشعب المختار سلاح ذو حدين . فهو يدور دورة حذرة (يقتضي الانصاف بالايلام عليها) حول القضية العنصرية بكل تناقضاتها الصارخة في دعاوي التفوق اليهودي. وسيرا على درب التفسير الاخلاقي « المتسامح » الحذر ، يقول ستيوارت ،عائدا الى هرتسل ، ان الختان وضع الوليد ، بصرف النظر عن الموقف الذي قد يتخذه ذلك الوليد من الديانة فيما بعد ، في صفوف الاقلية الاوربية (اليهود) « المتصفة باعمق كبرياء واطول ماض الم والتي كان ينتظرها مستقبل اتصف باكبر قدر من الافتقار الى اليقين. والواقع ان الالام التي تحملها اليهود في سبيل الختان كانت مالوفة من قديم ، اما الجديد في ختان هرتسل فتمثل في ان المستقبل الذي بات ذاك الختان واعدا او منذرا به كان مبهما غامضا ».»(ص١٦) وهنا يتبرع ستيوارت مشكورا ـ غير دار ربما ـ بالكشف عما في تناوله الحذر الدائري المتراوح من عوار ،اذ يغفل تماما عن استظهار العامل الاقتصادي ـ الاجتماعي فيما طرا على وضع اليهود من تغير في المجتمعات الاوربية (وهو تغير طويل لم يتم بين عشية وضحاها، بل استغرق وقتا طويلا ، وتعرض لنكسات كانت قصة الصهيونية مع النازية ذروتها ، واستقر اخيرا عند ما هو عليه الان مما يرغم ستيوارت وامثاله عند محاولة النظر الموضوعي او المتطلع الى الموضوعية على اللف الحذر والدوران الخائف بحيث تتوه الحقائق وتطمس وتبهت الموضوعية لتصبح اعتذارا) فيقول :

« ولقد ظل وضع اليهود حتى منتصف القرن الثامن عشر صعبا لكن واضحا » (ص ١٦) .

وهذا حقيقي وصحيح ، ولكن لماذا ؟ الذي يبدو من قراءة التاريخ واستقراء مسار اليهود فيه ان صعوبة وضعهم في المجتمعات الاوربية (وبخاصة مجتمعات اوربا الوسطى) التي جاؤوها مشتتين ودخلوها لينغلقوا على انفسهم وراء اسوار « الجيتو » ويقتاتوا (وهم يتصايحون طيلة الوقت يا ويلاه من الاضطهاد) على اجساد تلك المجتمعات ويتربحوا من مصائبها وبلاياها التي كانت لهم ـ في معظم الامر ـ اياد طولى فيها ، تلك « الصعوبة » التي يتحدث عنها ستيوارت كان منشأها انهم وفدوا الى تلك المجتمعات بعد ان رسخت وتشكلت واستقرت (وظلت امادا طويلة عصية على التغيير بسبب الجمود اللاهوتي والحق الالهي) فلم يجدوا في بنياتها منافذ كثيرة لهم ، فظلت بفضل ماقامت عليه من انسقة ثابتة صمدت حتى لما احدثته حركات الاصلاح الديني ، وانفتاحات عصر النهضة ، وعصر الثورات السياسية ، من خلخلة واضطراب ـ موصدة في وجوههم ، وفي افضل الاحوال ظلوا مرابين وتجارا او سماسرة ، الى ان جاء عصر الثورة الصناعية فزلزل كل راسخ وهدم العديد من اركانه ، ولم تفت الفرصة المرابين اليهود وتجار الحروب ، فقفزوا من ذلك الشق في الاسوار ، وقد واتتهم الفرصة « ليصبحوا محترمين » بوصفهم ممولين وشركاء للبورجوازية الوليدة انذاك التي كانت تقاتل في معركة ضارية مع مديري المجتمع القدامى لتنتزع ادارته منهم. وبفضل دعاوي المساواة والتحرر والتسامح والديموقراطية التي استخدمتها البورجوازية اسلحة في حربها الطبقية تلك،وبفضل الثراء الذي كان اليهود قد حققوه رغم الاضطهاد ، وربما ايضا بفضل براعاتهم المالية وخبراتهم الطويلة بفنون الاقراض ، والربا التي باتت جوهرية لنجاح النظام الجديد القائم على الصناعة والبنوك، وهي فنون ظل الحلف القديم بين ملوك الحق الالهي والنبلاء والاقطاع والكنيسة يحرمها ويحاربها دهرا طويلا الى ان تمكنت البورجوازية التي كانت محدثة نعمة في ذلك الوقت من كسر ظهر الحلف وكسر اغلال نواهيه . والذي لا شك فيه ان نشاة النظام الرأسمالي والطبقة البورجوازية في بلدان اوربا لم تصبح ممكنة الا من خلال الغاء تحريم الربا . ولقد قيل ذلك في الدراسات التي وضعت عن الثورة الصناعية باساليب عديدة ابرزها اظهار الترابط بين انتشار البروتستانتية وازدهار النظام الرأسمالي ، غير ان الذي لا شك فيه ان الممولين الاوروبيين ظلوا امدا طويلا في حاجة الى ما جعلهم تحريم الربا السابق يفتقرون اليه من خبرات في ذلك المجال ، ووجدوا انفسهم ، لذلك ، في حاجة ماسة لا الى اموال المرابين والتجار اليهود فحسب بل والى خبراتهم الطويلة الضاربة في القدم بفنون الربا والتجارة ، والى شيء اخر لا يقل اهمية : خبرتهم باسواق العالم المالية والتجارية . وبذلك التحول بدات صعوبة وضع اليهود في المجتمعات الاوربية تتلاشى ، فيما بعد منتصف القرن الثامن عشر ، وبدأوا يخرجون الى وضح النهار ، ومن يوم الى يوم يوطدون

تحالفهم مع البورجوازية الصاعدة اكثر ، ويرسون اقدامهم في النظام الراسمالي المزدهر اكثر فاكثر . ولقد توصل اليهود الى تحويل انسحابهم القديم في ظل طبقات ما قبل الانقلاب الصناعي الحاكمة ، وراء اسوار الجيتو ، الى تحالف ثم الى سيطرة وقبضة خانقة على الطبقات البورجوازية في بلدان اوربا ، دون ان يكفوا عن الاعيبهم القديمة التي ظلوا يقتاتون من خلالها على اجساد تلك المجتمعات « الاممية » التي فتحت لهم ابوابها على مصاريعها فرفضوا ان يندمجوا فيها وظلوا ـ باختيارهم ـ « مغتربين » عنها. ومن بعض الاوجه يمكن ان تعتبر الفورة الوحشية للنازية في اوروبا كآخر واعنف محاولة لكسر القبضة الخانقة التي احكمها اليهود على اعناق الاوروبيين وضاق بها كبار الصناعيين والمولين الاممين (ممولي النازية) في المانيا ، وبعد فشل تلك الفورة ، وكسر شوكة النازية عرفت الحركة المنافسة لها ، الصهيونية ، اعظم ازدهار لها ، خاصة بعد ان التقطتها ـ في اعقاب الحرب العالمية الثانية ـ الامبريالية الاميركية التي خرجت لترث العالم،واكترثها .

فما الذي يقوله دزموند ستيوارت (الكاتب البريطاني ليبرالي الفكر ، ربيب المجتمع البورجوازي « الديموقراطي المتسامح » ؟ انه يرجع الامر كله الى اسباب ترفضية وضيق افق فكري وتعصب من جانب الاممين ضد اليهود ، ويرجعه الى اسباب لاهوتية ! :

« ولقد كان بعض تلك الصعوبة (في وضع اليهود) نابعا من عداء الاممين لهم ، وبعضها من متطلبات ناموس بالغ التركيب، لان العهد (بين الاله و « شعبه المختار » لم يكن كسبا جماعيا لتذكرة يا نصيب ! بل احس به كاندماج جماعي في اداء مهام بالغة الصرامة : مهمة الابقاء على « العرفان بالله الواحد » حيا في عالم خلقه ذلك الاله لكنه (اي العالم الضال) رفض في معظم الاحيان ان يعرف آلهه » . (ص ١٦ ـ ١٧) ويضيف ستيوارت استشهادات من العهد القديم يقف لها شعر الراس هولا يقول فيها موسى لشعبه أن الهه القمري الذي سرقه من المصريين ومن كاهن مدين سيفعل بذلك الشعب اشياء رهيبة اذا لم يحافظ على الوصايا العشر فلا يحيد عنها قيد انملة ، يمنة او يسرة ، ويضيف الكاتب ايضا قوله ان تلك شروط التفوق الروحي لليهود على سائر امم الارض .

وذلك كلام جميل ونوراني ويرفع المرء الى السموات العلى . لكن اليهود عندما حلوا وخرجوا منه سرقوه قبل ان يخرجوا (وهل يريد احد ان يكذب ما هو مكتوب في العهد القديم ؟) رغم ان وصايا يهوه القمري قالت لليهودي لا تسرق . وكلما حل اليهود ببلد وتمكنوا من اهله ، ذبحوهم ، رغم ان وصايا الاله الى اليهودي تقول : لا تقتل . وهل يريد أحد أن يكذب تواريخ المذابح البشعة في العهد القديم ، حتى وان كان يريد بحجة التحضر والتسامح والموضوعية ان يعمى عن مذابح اليوم ؟ وهل لم يقرا المستر ستيوارت في مدرسته البريطانية المتحضرة في « انجيل المدرسة » ما فعله شعب ابراهام ويعقوب وموسى بأهالي شيكيم بارض كنعان المبتلاة من قديم ؟ فقد نزلوا ، من اختارهم الاله ووضعهم فوق سائر البشر خارج بلد يقال لها شيكيم . وهناك ضربوا خيامهم وبدأوا يطلقون القطعان التي جمعوها من اجل مجد الرب من كل ارض حلوا بها او مروابقربها، وجمعوا خيرات كثيرة من ارض شيكيم وشربوا وسروا سرورا عظيما. ثم سرحت من بناتهم بنت فرآها ابن ملك تلك الارض وهام بها عشقا، فذهب معها الى مخيم اليهود ضيوفه ليطلب يدها كما يقال بالتعبير الانجليزي المهذب . فتشاور ابوها واخوتها وقالوا له نقبل ان نبقى بارضكم ونتزاوج. لكن شريعتنا الغراء تقضي بأن من يضاجع بناتنا لا بد أن يكون مختننا ، فان شئتم ارسلنا اليكم من يختن كل ذكوركم من ابن ثمانية ايام الى ابن تسعين .

فذهب الفتى الغر واقنع اباه وعشيرته ، وجاء اليهود فختنوا كل ذكر منهم ، وبعد ان نفذوا شريعة الاله المتعاهد معهم جاءوا بالسيف الى اهل شيكيم وقد اقعدهم التختين ارضا فذبحوهم عن بكرة ابيهم ، وسبوا نساءهم ، وبطبيعة الحال اخذوا ماشيتهم وذهبهم وفضتهم ، لا لشيء ، ولكن من أجل مجد الله . ولعل ستيوارت لم يقرا خبر تلك المذبحة ولم يقرأ خبر مذبحة اريحا وغيرها ايام التلمذة ، ولكن الم يقرأ خبر مذابح دير ياسين والف دير ياسين؟ بل الم يسمع بما قيل في الكنيست الاسرائيلي مؤخرا بمحضر من عضو محافظ بمجلس العموم البريطاني من ان احدا في العالم المتمدن لا يجب ان يحدث كل تلك الضجة حول قتل الفلسطينيين ، لانهم « ليسوا اناسا ، ليسوا بشرا » ؟ غير ان ذلك كله من مسائل كل يوم الدارجة المبتذلة ونحن نتحدث هنا عن مقومات « التفوق الروحي » لشعب مختار . ونتحدث عن التاريخ القديم لا عن مشاكل اليوم . وانظر مثلا هذا التفسير للجيتو :

« مع استيلاء الرومان على القدس سنة ٧٠ ميلادية ، وفشل ثورة يهودية بقيادة باركونجه في القرن الميلادي الثاني ، ذاق اليهود كل ما تهددتهم النبوءات به (اذا لم يتبعوا وصايا الاله المنتقم الجبار) ، فتشتتوا في انحاء اوربا والبحر الابيض المتوسط حيث عاشوا منعزلين وحدهم ، وقد صمموا الا يستجلبوا غضب الاله ثانية على رؤوسهم . فالحائط المحيط بالجيتو اقامته مجموعتان من الايدي : من جانب ، ايدي امم الارض التي بات اليهود بشعين بالنسبة اليها ، ومن جانب اخر ايدي اليهود انفسهم ، وقد عقدوا العزم على ان يتبعوا بادق تفاصيلها طريقة الحياة التي حددت لهم بتعاليم انبيائهم ، وفوق كل شيء بتعاليم موسى . وقد تلخص ما كانوا قد عقدوا العزم عليه من موقف تجاه الحياة في قول شمايه، احد معاصري هيرود الاكبر ، وقد قال :

« احب العمل ، واكره التسيد ، ولا تجعل نفسك معروفا من الحكومة (!) » ، وهكذا فان الجيتو كان مكان انعزال ،وامكنة تستثير الريبة والازدراء بسهولة . (وهكذا) تدهورت اللفظة في الاستخدامات العامية للاليزابيثيين فباتت مرادفة للفظة « ماخور »، وفي الاستخدام الحديث باتت تعني حيا سكنيا متخلفا تقطنه اقلية دينية او عنصرية تعيش حياة اسوأ من حياة الاخرين . ولقد يصدق الاستخدام الاخير على الجيتو اليهودي ، ولكن جزئيا فقط ، لاننا اذا اقتصرنا على النظر اليه في ذلك الاطار وحده باتت رؤيتنا له منقوصة . فالجيتو كان ايضا قلعة لها بعض وظائف الدير ، كان ملاذا لاناس كرسوا انفسهم لانشغالات اختلفت عما انشغل به الناس خارج اسوار الجيتو في مجتمعهم اليومي(هل يتكلم مستر ستيوارت بالصدق ؟ وهل يصدق ما يقول ؟) ، منصرفين الى دراسة التوراة، غير مقتصرين على محاولة العيش في حدود مفاهيمه فحسب ، بل ومجتهدين في العيش طبقا لروح الخير والاحسان التي تكمن وراء تلك المفاهيم . والواقع ان انعزالهم عن عالم كان يسمح بالرق ، والتعذيب، والاضطهاد ، والحملات الصليبية لم يكن شيئا سيئا . فكما ان الاديرة المسيحية اشعلت سراجا خافتا من روح العالم الهيليني لاوربا البربرية ، قام الجيتو اليهودي بالحفاظ على شكل فريد من اشكال التوحيد بعد وقت طويل من تشتت شعب اسرائيل على النحو الذي تنبأ به موسى . ولذا فان المفكرين اليهود انتهوا بمرور الوقت الى الاعتقاد بان ذلك الشتات (الدياسبورا) لم يكن عقابا من الله لليهود على خطاياهم فحسب ، بل ووجها من اوجه العناية الالهية التي لا يسبر غورها » . (ص ١٨)

ورغم اننا ما زلنا عند بدايات الكتاب ولم نر شيئا بعد ، فاننا نستطيع ان نقرر ونحن بمأمن من الزلل ان هذه الفقرة الشاعرية التي اطلق المستر ستيوارت العنان فيها لفصاحته ، قد تكون من خير

ما يكشف لنا عن منهجه ، او ـ ان شئنا توخي الدقة ـ عن طريقته المشتاقة بعض الشيء في معالجة موضوعه . فبكل تؤدة الباحث المدقق المنصف للحقائق حتى ولو على حساب مشاعره النبيلة بل وعلى حساب انتمائه الى اوروبا البربرية ذاتها ، يدخل الكاتب الى موضوعه (المحفوف بالمهالك كما قلنا) دخول انسان مسلح بكل اسلحة الموضوعية والتبحر العلمي والتناول الاكاديمي الذي يشارف احيانا الموسوعية لا اقل . انظر فقط كلمة جيتو المباركة هذه وكيف يستقصي الكاتب تدهورها لغويا في عصر شكسبير ، مستشهدا بعبارة نابية قالها هاملت ، وقد افقدته الغيرة حسن تقديره للامور ، للمسكينة اوفيليا ، وتطورها ، تلك الكلمة ، الى حيث باتت اسما على الاحياء السكنية المتخلفة التي تقطنها الاقليات الدينية والعنصرية .. الخ . وفيما يخص الاليزابيثيين يحسن ان نستأذن المستر ستيوارت في ان نتذكر ما فاته ان يتذكره وهو آخذ في ذلك التبحر العلمي ، الا وهو انه وان كانت طبقة المولين بدأ ظهورها الى السطح ، في بلاده ، في عصر اليزابيث الاولى، فانه كان قد ظل بين تلك الطبقة وبين السطوة الاجتماعية التي اتاحها لها العصر الصناعي وانقلابه العظيم وقت طويل ، ولذا فانه امكن لمارلو ان يكتب « يهودي مالطة » ، وان يكتب شيكسبير « تاجر البندقية » ، وان يجري في « هاملت » ذلك البذاء على لسان بطله . ولقد نال مالرو جزاءه على اي حال . اما فيما يخص الاستخدام الحديث ، وتحول الجيتو ، كلفظ من الفاظ اللغة ، الى تسمية للاحياء السكنية المتخلفة ،فان ذلك قد يصدق على حي يقطنه الزنوج، اما اليهود فان الجيتو فيما يخصهم لا يمكن ان يكون كذلك الا جزئيا فقط . لماذا ؟ كيف لماذا ؟ انظر الى ما ذهبوا يفعلونه وراء اسواره . هل ذهبوا وانعزلوا وراء تلك الاسوار لانهم يهود وشعب الله المختار ولا يصح ان يختلطوا بالاممبين السائمة (الذين يعتبر المستر ستيوارت منهم ، معذرة ، بمعاييرنا نحن) الذين خلقهم الاله المنتقم الجبار ليمتطيهم شعبه المختار ؟ ابدا . لقد انعزلوا نايا بانفسهم عن دنس العالم الضال الذي سمح بالرق والتعذيب (والحروب الصليبية ،حتى يطيب الكاتب خاطر جمهوره العربي) وما الى ذلك من الشرور والموبقات التي لا يقرها اليهود ولا يطيقها دينهم الرقيق الحاشية الذي يمقت العنف وينفر من التعذيب وتثير هلعه اراقة الدماء . ومهما تذرع المرء بحسن النية هنا ، واسترض في الكاتب طيبة القلب المفرطة ، فانه لا يملك الا ان يتساءل ،هل قرأ الكاتب العهد القديم ؟ وان كان قراه ،هل ما زال يذكره ، ام انه يفترض ان قراءه ، كلهم ، لم يقرأوا ذلك الكتاب الرهيب ، او انهم قرأوه ، ومن فرط ما يسكب في عقولهم كل يوم عن اليهود ، نسوه ؟ الم يبد له ذلك العهد القديم ، في الف موضع وموضع ، غارقا في الدم ؟ ام ان العهد القديم مدسوس على اليهود ؟ فان لم يكن مدسوسا ، وقد تأبطه اليهود في الشتات وذهبوا متباعدين به عن الاممبين البرابرة (الاوربيين وشعوب البحر الابيض) ممن تشتتوا في ديارهم ، ليعكفوا على دراسة تاريخهم وتعاليم احبارهم وزعمائهم ، فكيف يطلب منا المستر ستيوارت ان نتصورهم قابعين، كالعذارى الطاهرات ، وراء اسوار الجيتو، مرتعدين فرقا وتقززا واستقطاعا من البشاعات التي كان الاممبون يرتكبونها خارج اسوار ذلك الجيتو ؟ نعم كان الجيتو لليهود بالمجتمعات الاممية منفى اختياريا واجباريا وقلعة . ولكن قلعة ماذا ؟ واي روح خير واحسان تلك التي يحدثنا عنها المستر ستيوارت ؟ هل يتكلم جدا ؟ وهل يطلب من قرائه ان يأخذوه مأخذ الجد حقا ؟ وان كان اليهود ذهبوا وانقطعوا لما يقول لنا انهم انقطعوا له وراء اسوار الجيتو ، فمن اين اتوا بكل ذلك المال الذي اذلوا به اعناق الاممبين واشتروا به مجتمعاتهم وساستهم وكتابهم ودور نشرهم ؟ نزل عليهم من السماء كالمن والسلوى وهم سجد هجد يتعبدون ؟ كيف بالله خرجوا من القلعة ـ الدير تلك التي يهزج بها المستر ستيوارت وقد « اتخمهم الثراء حتى افقدهم كل تواضع » كما يقول لنا هو مستشهدا بقول حبر من احبارهم قد يكون فسد وتقشف وقد يكون القطار فاته ولم يسعده الحظ بالاثراء من تجارة الطباق الذي كان يأتي من اراضي البلقان العثمانية وغير الطباق من خيرات الله ؟

يقول لنا المستر ستيوارت في مستهل كتابه ، القيم ولا شك ، انه تملكه طموح لاكتشاف الكائن الانساني الذي عاش من سنة ١٨٦٠ الى سنة ١٩٠٤ ، والذي جمع في شخصه ، بدرجة فريدة ، بين رجل الاحلام ، ورجل الافعال « وعندما نذهب معه ، ليرى ، نجده واقفا بنا خارجا ، مستغرقا في وصف السطح والظاهر فقط ، لا يكاد يقترب من الحقائق التي توشك ان تثقب العين ، وان اقترب فلكي يتحسسها ، تلك الحقائق ، من خارجها ، لحظة ، ثم يولي الادبار وهو يلقي من فوق كتفه باقوال قد تبدو له غاية في النبل والنمدين والليبرالية ، لكنها تظل باعثة على التساؤل الذي يفرضه ـ للاسف ـ كل ما تحاول كتابة المستر ستيوارت ان تقنعنا انها غارقة فيه من اشتياق الى استجلاء وجه الحقيقة لا اكثر ، وما ذلك التساؤل الا : ان كان مما يهدر قيمة الفكر ان يصدر عن نية سيئة مسبقة ، الا يهدر قيمته ايضا اصرار الكاتب على النبل مهما كانت الحقائق ؟ ولماذا يجب على الكاتب ان يطمس عقله خوفا من ان يبدو (لنفسه قبل ان يبدو للاخرين) غير مستعبد بما فيه الكفاية لنوازعه النبيلة او لما جعله احد يعتقد انه يجب ان يكون جزءا لا يتجزأ من نوازعه النبيلة ؟ لماذا لا يجب ان يتسلح الكاتب في وجه احتمالات الغش والخديعة التي لا ينكر احد انها ماثلة في العالم ، بشيء من الشك على الاقل ؟ الا يقول المتعمقون في اللاهوت ان الشك اول خطوات الايمان الصحيح ؟ فهل الايمان بأن اليهود ملائكة وشعب مختار حقا اخطر شانا من الايمان بالاله المفروض انه اختار اليهود ؟ الم يقل ديكارت « انا اشك ـ انا افكر ـ اذن فانا موجود ـ ووجودي دليل على كذا وكيت ؟ » لقد جرؤ مفكر عظيم كسبينوزا فشك وتساءل ، بل ورفض . فهل كان سبينوزا وحشا ونازيا ؟ ولقد جرؤ يهود ادنى مرتبة من سبينوزا بكثير فرفضوا ونادوا باصلاح اليهودية كما يقول لنا المستر ستيوارت ذاته . فهل كان اولئك وما زالوا وحوشا ونازيين ؟ وهل من المتعين على الكاتب ـ لكي يكون متحضرا ـ ان يفعل ما تفعله الحكومات والمؤسسة عندما تحالف الصهيونية (اكثر اشكال الرجعية تطرفا) باعتبارها « ارقى تعبير عن التحضر والديموقراطية » ؟ ولماذا لا يحاول الكاتب ان يلقي بسمعه قليلا الى اناس كباروخ سبينوزا او دعاة اصلاح اليهودية ؟ لماذا يجب على الكاتب ان يلتزم « الخط الرسمي » خشية ان يتهم بالزندقة ؟ ولماذا يتعين عليه ـ تحت وطأة خوفه ذاك ـ ان يتحسس الحقائق ويهرول مبتعدا ؟

وان شئت مثالا على ذلك كله ، فخذ قول ستيوارت ان اليهود جاءتهم الدعوة الى وليمة الحضارة الاوربية متأخرة (ص ١٩) ، فالقول صادق ، وحقيقي ، ومعبر . لكن الكاتب ما يلبث ان يفقده ما كان يمكن ان يظل له من قيمة ، غير تارك له الا قيمة الفصاحة لا اكثر ، فيضعه بين اقوال لا تحصى ظاهرها الذكاء والبراعة وباطنها (في افضل الاحوال) ابيض بغير سوء ، هي تلك التي ينبع فيها ويرتزق بها كتاب اميركيون واوربيون كثيرون يسلكون سبيل المعالجة الاستعراضية من الخارج لما يتحدثون عنه . فستيوارت يقف على هذه الحقيقة الهامة بالنسبة لموضوعه : ان اليهود ظلوا دخلاء مرفوضين ، او قل منبوذين ، في المجتمعات الاوربية ، الى ان فتحت لهم الابواب في وقت متأخر . لكنه ما يلبث ان يقف حائرا (فيما يبدو مما كتبه بعد ذلك مباشرة) ، يقلب تلك الحقيقة المفيدة غير دار اي شيء يمكن ان يفعله بها، وربما ايضا خائفا مما يمكن ان تستدرجه اليه اذا ما حاول الذهاب في شأنها الى ما وراء السطح ليرى ويقول لنا ، فيغنم السلامة ويظل خارجا . ولئلا يظل واقفا بالخارج لا يفعل شيئا ، يذهب متلمسا الاسباب في عدد من انصاف الحقائق ، فيقول ان القوى التي هدمت اسوار الجيتو

وحررت اليهود (فاخرجتهم مما وصفه بانه قلعتهم ـ الدير) في القارة الاوربية جاءت ـ تماما كالقوى التي اقامت تلك الاسوار ـ من داخل ذلك الجيتو وخارجه على السواء . « فاعلان حقوق الانسان الذي تبنته الثورة الفرنسية كان قد قضى على كل اساس للتفرقة . وبحلول عام ١٨٣١ كانت اليهودية قد باتت ديانة معترفا بها رسميا في فرنسا وتتلقى عونا ماديا (!) من الدولة بوصفها كذلك . ويهود هولندا كانوا قد تحرروا منذ سنة ١٧٩٦ ، ومثلهم يهود المنطقة التي عرفت بعد ذلك باسم بلجيكا . اما في الولايات الالمانية ، فقد ظل تحرير اليهود متأرجحا يعلو تارة ويهبط اخرى ، تأتي به حركات ثورية (بورجوازية) وتذهب به الحركات الرجعية ، الى ان اعترف به صراحة في دستور الامبراطورية الالمانية سنة ١٨٧١ . فتحرك الشعوب الاممية لتحرير اليهود نبع من ذلك التيار الفكري الذي اتصف من جانب « بالكرم » ، ومن جانب اخر ، بالتشكك الديني . وهو تيار بلغ ذروته بنشوب الثورة الفرنسية . » (ص ١٨ ـ ١٩) وهذا كله انصاف حقائق ، واحيانا اقل من ذلك بكثير ، وهو ما يدركه المستر ستيوارت بغير شك، لان الحكاية لم تكن منافسة دينية بين المسيحية واليهودية . وهو اذ يدعي ذلك (في شق من تفسيره) يلجأ في تفسير التغير بالغ التعقيد الذي حول اليهود من اقلية منبوذة مشكوك في امرها مثيرة للتقزز جالسة (او متمددة) تحت حذاء اوربا فيما قبل منتصف القرن الثامن عشر ، الى صفوة بشرية متربعة على عقل اوربا وقلبها ، يلجأ في تفسير ذلك الى اسلوب الامعان في التبسيط الذي لا نظنه ـ بوصفه سليلا للفكر التجريبي العلمي الاوربي ـ في حاجة الى من يقول له انه اسلوب مدان ومرفوض ، حتى وان قرن ذلك التفير الديني بمتغير اخر يورده بشكل بالغ التعميم والابهام تحت اسم « الكرم » الفكري . فهو ـ بذلك ـ يطمس (او يروغ من) متغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية عديدة باشرت فعلها في احداث ذلك التغير وهدم اسوار الجيتو لتخرج اليهود الى ساحة المجتمعات الاوربية يصولون فيها ويجولون ، وفي مكان ذلك التشابك المتداخل لعلل واسباب تبادلت التأثير فيما بينها طوال عقود باكملها لتحدث ذلك التغير، يضع ـ ببساطة مطمئنة راضية ـ « تيارا من افكار متصفة « بالكرم » والشك الديني » ، بل ويكتفي بذلك ، ولا يعنى حتى بالذهاب وراء ذلك التيار ليستكشف منابعه ويرى من اين اتى ، ولم ، بل ولم كان من المتعين ان يكون اليهود وحدهم هم الذين انتفعوا به وافادوا منه تلك الفائدة العميقة دون سواهم من الاقليات الدينية والعنصرية . وما من شك في ان ستيوارت احس بكل هذا الضعف فيما ساقه من افكار وتأملات ، لانه ما يلبث ان يحاول ـ بشيء اقرب الى التلفيق منه الى اية محاولة لاستجلاء الحقيقة ـ ان يصلب عود افكاره وتأملاته هذه ، فيقول ان الشك الديني لم يكن من جانب واحد ، اي لم يكن من جانب «الاممين» وحدهم ، بل من جانب اليهود ايضا . ونقول انه قارب التلفيق في ذلك لانه يأخذ هنا في تطويع الحقائق لتطابق ما يقول بدلا من ان يحاول جعل قوله استجلاء للحقائق . واذ يفعل ذلك ، يتردى في تناقضات خطيرة .

وبينما وضع الوسوعيون الفرنسيون تعاليم الكنيسة موضع التساؤل ، رفض اليهود وخاصة من كانوا منهم بالمانيا عقيدتهم الضاربة في القدم كلية ، او حاولوا ان يجعلوها تتكيف للانماط السائدة .. ولقد كانت احدى النتائج العاجلة لذلك التفاعل المتبادل بين اوربا التي باتت اكثر تسامحا وبين المعبد اليهودي الذي بات اكثر تساؤلا ، ظهور ونمو ما بات يعرف باسم « اليهودية المستصلحة » . فبدلا من ان تظل الشريعة اليهودية المقياس الذي يرجع اليه ابدا في كل نشاط يقوم به اليهودي ، وكل شعور يحس به ، كما كانت تلك الشريعة قد ظلت بوجه عام حتى ذلك الوقت ، بات متعينا على الشريعة اليهودية ان تبرر نفسها امام محكمة الحضارة الاوربية ـ بالاقل في اعين اولئك اليهود الذين كان دخول المجتمع الاوربي بالنسبة اليهم هدفا اسمى يتعين بلوغه ، وقد كان هؤلاء يمثلون السواد الاعظم من اليهود الغربيين . » (ص ١٩)

ورغم ان المستر ستيوارت يتذكر ، قبل هذا الكلام بقليل، «اسقف باريس الذي تبرأ من المسيحية امام المجلس الثوري » ، ورغم انه ـ بغير شك ـ يذكر ان جاليليو (والتشبيه مع الفارق) تبرأ من عقله ذاته ، ورغم ان كلامه هذا كله يكاد يثقب العين بما ينطق فيه من انصياع (تكتيكي) لحكم الضرورة ومتطلبات اللحظة الحضارية التي كان من المتعين الا تترك لتضيع : « .. دخول المجتمع الاوربي بالنسبة اليهم هدفا اسمى يتعين بلوغه » ، ورغم ان الواقع واحداث التاريخ اليهودي ـ الاوربي ماثلة ولا تترك كبير مجال للنقاش حول اهمية ، او ثقل ، او حجم « اليهودية المستصلحة » هذه ، يستمر ستيوارت في عملية تطويع الحقائق لما يريد ان يقول ، فيخبرنا ان « الجيتو كان رمزا لتصميم اليهود على ان يظلوا منفصلين ، وان يظلوا شعبا مقدسا، وان يظل ما بينهم وبين اغواءات الثقافة الاممية مقطوعا مثلما تقطع الراهبة ما بينها وبين الزواج ، او الراهب ما بينه وبين السوق . ولقد بدا الحل الوسط بين اليهودية والقيم الاممية الذي واكب تدمير الجيتو (للمتمسكين بالعقيدة) كمثال جديد على الروح التي ادت بالعبرانيين بعد الخروج الى ان يعبدوا تمثال هارون ، ويهود الحقبة الهيلينية الى المشاركة في الالعاب الوثنية وانكار تختينهم .. الا ان حركة الاصلاح ، برغم (ذلك) انتشرت ، بعد ان بدأت في المانيا ، كالنار في الهشيم عبر القارة الاوربية باكملها ، ومنها الى اميركا ، وهكذا فان احبار الاصلاح لم يعودوا يعترفون بتوراة او تلمود او باي مصدر ديني يهودي اخر ، باعتباره شيئا ملزما ، ولم يعد هناك تقليد يهودي ، مهما كان جوهريا ، لم يتعرض في وقت او اخر لهجومهم . وهكذا فان العهد بين الآله وابراهام تعرض للهجوم من جانب ابراهام جايجر ، مؤسس اليهودية المستصلحة ، وللزراية من جانب تلميذه اميل هيرش ، والسبت (يوم اليهود المقدس) حوله صمويل هولدهايم الى يوم الاحد (الاوربي) ، ويوم الغفران وصفه ج.م. فايس المصلح النيويوركي بانه يوم كئيب ، لا قيمة له ، واحد البقايا الرثة لنظم العقيدة اليهودية ، وحتى الايمان بخلود الروح قارنه الواعظ المصلح اميل هيرش بالمخدرات وعقاقير التخدير ، ويوم تشاه بيعاف ، يوم النواح العظيم للدولة الضائعة والمعبد حولا الى يوم رقص وابتهاج . » (ص ١٩ ـ ٢٠)

والواضح طبعا مما يسوقه ستيوارت ان هذا كله اما متعلق بردة محدودة لا كبير وزن لها ، او تيار تحرر فكري لا كبير خطر له ، واما (وهذا احتمال قائم) بعملية تمويه كبرى بارعة ، تحقيقا للهدف الاسمى ، وهو دخول المجتمع الاوربي والنفاذ الى قلبه . لكن المستر ستيوارت يرى ان ذلك « التمزق (اليهودي) بشكل يعتبر من خصائص كل الديانات الاوربية في القرن التاسع عشر » (ص ٢٠) ادى الى التوافق بين الشك المسيحي والشك اليهودي واغنى تيار الشك والكرم الذي احدث التغير العظيم .

ولو ان المستر ستيوارت ، والحق يقال ، ليس بكل ذلك القدر من سرعة التصديق . فهو ـ اولا ـ يتحفظ ، ويقول ان اليهود انقسموا في اوربا الى فئتين : فئة كانت « ترغب باي ثمن في التفاهم مع عصر ليبرالي ، وفئة اخرى كانت ترى ان المنقذ الوحيد في البحر المضطرب لا يمكن ان يكون الا النجم الثابت » (ص ٢٠)

لندن

البقية في العدد القادم

هوامش

الصفحات المشار اليها قرين كل رقم من ارقام الهامش ، من الطبعة الانجليزية الصادرة بالمملكة المتحدة من كتاب دزموند ستيوارت « هرتسل » الناشر هيمش هاميلتون ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٤ .